

دراسة في رواية ما تبقى لكم لغسان كنفاني

سعيدة مبرح جولينغودي*

فاطمة علينژاد چمازكتي**

المخلص

غسان كنفاني كاتب، وناقد، وروائي، وشاعر، وشهيد، قد خرج برواياته العديدة عن دائرة الواقع الاجتماعي المحلي (هموم ناتجة عن نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨) إلى القضايا الإنسانية العامة التي تتعلق بالوجود وبالإنسان. ما تبقى لكم، هي رواية تعتبر من بواكير التجارب الحداثية في منبر الرواية العربية، لا يستطيع القارئ العادي أن يفهمها، وحتى القارئ المختص يحتاج إلى الروية حتى يستكشف مضامينها. قد استطاع الكاتب أن يصور قضايا مجتمعه من خلال رسم أحداثه. بعد قراءة هذه الرواية الاجتماعية تتضح أن غسان كنفاني، كان يشاهد مشكلات المجتمع الفلسطيني، وقد تأثر بمشاهداته الدقيقة وكأنه ناطق باسم الطبقة الشعبية، والطبقة المتوسطة التي كانت تعاني من مظاهر الظلم، والفساد، والفقر، والحرمان. والكاتب قد تحدث عن الواقع على لسان الشخصيات الفلسطينية. كانت هذه الرواية انعكاساً للمضمون الروحي لشعب معين في مرحلة معينة. يحاول غسان في هذه الرواية الوصول إلى التعبير المناسب عن أفكاره التحررية وغايتها فكرة العودة.

الكلمات الدلالية: غسان كنفاني، ما تبقى لكم، فلسطين، القضايا الإنسانية.

*. عضوية الهيئة التعليمية في المركز الإقليمي للمعلوماتي للعلوم والتكنولوجيا. شيراز.

** عضوية الهيئة التعليمية في المركز الإقليمي للمعلوماتي للعلوم والتكنولوجيا. شيراز.

المقدمة

ولد غسان كنفاني كاتب، وناقد، وروائي، وشاعر، وشهيد في مدينة عكا، في فلسطين سنة ١٩٣٦م، واستشهد سنة ١٩٧٢م؛ فهو رغم أدبه الخاص، ورواياته الكثيرة، لم يعرف في بلادنا كما يستحقه. إن ظهور كنفاني كأديب كان مع روايته رجال في الشمس ١٩٦٣م، في مناخ ثقافي وفكري عام، شكلت القضية الفلسطينية خلفية بعيدة لهموم النخب الثقافية العربية. من نتائج نكبة عام ١٩٤٨م، كان هروب الشعب الفلسطيني من وطنه؛ ليعيش لاجئاً في أغلب أقطار الوطن العربي. نرى في هذه الظروف عديداً من الضحايا في الميدانين الاجتماعي والسياسي، وقد انعكست هذه الظروف والحالات في الرواية الفلسطينية بوضوح كامل في صورة رموز بشرية وقعت ضحية ظلم الآخرين، وتعسفهم.

ما تبقى لكم، هي الرواية الثانية لغسان كنفاني، هذه الرواية صدرت ١٩٦٦م، وهذا التاريخ له دلالاته الكبيرة في حياة الشتات الفلسطيني، فيه تحقق ظهور التنظيمات الفلسطينية، بتشكيلاتها العسكرية الضاربة والسياسة المنظمة. تحكى الرواية عن أسرة فلسطينية تسكن مدينة غزة. هذه الأسرة أخرجت من مدينتها يافا، بعد الصدام الذي حصل بين العرب، واليهود؛ وتحت ضغط الظروف، والإرهاب الذي تم فيه إخراجهم تشتتت الأسرة. حامد هو الشخصية الرئيسة في الرواية. هو رمز لكل شباب فلسطيني كابد مأساة ١٩٤٨م، وقذف به في سرعة لاتسمح باستيعاب ما حدث. الشخصية الثانية في الرواية هي مريم، أخت حامد، هي كل ما أفرزته الهزيمة من أوضاع الأسره الفلسطينية، ابتعدت من بيتها، ومدرستها، وطموحاتها، وأرضها بلامال ولاسند؛ لتضعها أمام أوضاع الحياة العاتية. الشخصية الثالثة، هو زكريا، زكريا هو الذي يمثل صورة الفلسطيني الجاحد بأرضه. هو يدل الضابط الصهيوني على الفدائي سالم، ويغتصب مريم في غياب أخيها، حامد، عن البيت. وفي نهاية الرواية قتل زكريا على يد مريم، والذي يختم به غسان الرواية، يؤكد أن المرأة الفلسطينية ليست صورة لفلسطين فحسب؛ بل هي رمز لأرضها عندما تنور على مغتصبيها. هي الرواية التي اعتمدت الشكل الأقرب إلى المعاصرة، وقد



قام بناؤها الروائي على حدث، غير أن ذلك الحدث لم يتطور تقليدياً بحيث نرى إليه، وهو ينمو لحظة بعد لحظة، وساعة بعد ساعة أمام أعيننا. الشخصيات تتحدث في زمن واحد والأمكنة أو الأزمنة، تتقاطع، وتتوازي، وتتوافق. إن غسان يخلق شخصياته نتيجة ملاحظاته الدقيقة لنفسيات وأنماط سلوك الشخصيات الحية التي يراها ويتعامل معها في حياته العادية. غسان يستطيع أن يخلق شخصيات ذات ملامح فنية، خاصة تجعل الشخصية خالدة في ساحة الأدب العظيم؛ لأن شخصيات رواياته تجاوزت صفحات الكتب النقدية، وصار الناس يتحدثون عنها، كأنما هي كائنات بشرية عاشت بينهم بالفعل.

غسان كنفاني، حياته الشخصية والأدبية

«غسان كنفاني واحد من آلاف الأطفال الذين شردوا، وعانوا ذل اللجوء، والعوز إثر نكبة عام ١٩٤٨م. وهو واحد من آلاف الفتيان الذين حملوا هم مسؤولية عوائلهم، وهم بعد في عمر الطفولة الغضة، كما أنه يمثل آلاف الشبان الذين حملوا القضية الفلسطينية حراً ثميناً في قلوبهم لم يبخلوا فيسبيلها حتى بدمائهم.» (ضمرة، ٢٠٠٥م)

ونحن عندما نروى سيرة غسان إنما نروى سيرة ومعاناة جيل بأكمله، إلا أن غسان يتميز عن غيره بكونه مبدعاً نذر نفسه وفنه في سبيل قضيته. إن قراءة غسان كنفاني قراءتان: قراءة لنصوصه، وقراءة لحياته. في الأولى نجول في عوالم المخيلة، والرؤى، والذات ومواجهها، والناس وحرائقهم الأبدية. وفي الثانية نمسك بيد التاريخ من طفولة غسان...حتى شهادته. نبدأ بالجولة الثانية:

«ولد غسان كنفاني في مدينة عكا في فلسطين سنة ١٩٣٦م، وتلقى دراسته في مدارس الفرير في مدينة يافا.» (كنفاني، ١٩٨٧م: ألف) «حدثت مأساة فلسطين سنة ١٩٤٨م، التي أرغمت على النزوح من وطنه إلى لبنان قبل أن يتم دراسته الابتدائية ثم لحق بأفراد أسرته في دمشق وعاش في شظف من العيش وقسوة من الحياة.» (السوافيري، لاتا: ٣٨٠)

«فيها عمل غسان مع شقيقه غازي في وظيفة العرض الحجي يكتبان الشكاوى للفقراء

أمام المحكمة؛ لنيل حقوقهم. راح غسان وشقيقه يتابعان الدراسة في مدرسة ليلية في الوقت الذي سافرت فيه فايزه (أخته) للكويت للعمل معلمة هناك ضمن قافلة تضم أول دفعة للمعلمات الفلسطينيات.» (العباسي، ٢٠٠٧م)

وهذه الشدة لم تضعف عزيمته ولم تصرفه عن مواصلة دراسته. ذكر والد غسان رحمة الله في مذكراته: «بتاريخ ١٢/٢/١٩٥٠ أرسلت تحريراً إلى وزير خارجية إيطاليا بشأن ميول غسان. وأنا شخصياً لا أشك بأن المستقبل باسم وزاهر أمام غسان، خصوصاً في الرسم، والخط، والأدب العربي سواء في نطقه أو كتابته أو ارتجاله..»

في ٢١/٢/١٩٥٠ انتقل غسان إلى مدرسة الثانوية الأهلية مديرها المربي سليم اليازجي استعداداً لتقديم فحوص الشهادة الإعدادية (البروفيه)..» (كفاني، ٢٠٠١م: ١٠٩) استمر والده: «بتاريخ ٢٩/٩/١٩٥٣ باشر غسان بعد حصوله على الشهادة الإعدادية العمل في مدارس الوكالة كمعلم لمادة الرسم في معهد فلسطين. عمل أحياناً كمعلم أيضاً في مدرسة دوحه الوطن الخاصة، وعمل لفترة قصيرة كرسام في مكتب مجلة الإنشاء لصاحبها نجيب الحفار..»

في كانون الأول ١٩٥٤ نال غسان بنجاح الشهادة الثانوية الفرع الأدبي وسجل انتسابه إلى الجامعة السورية كلية الآداب.» (المصدر نفسه: ١١٠ بتلخيص) «في عام ١٩٥٦م، سافر غسان كفاني إلى الكويت ليلحق بأخته وشقيقته بها حيث عمل معلماً للتربية الفنية والرياضية، وتحسنت الأحوال المعيشية للأسرة في هذه الفترة، وحصل الان على موافقة السلطات للممارسة مهنة المحاماة وكان معظم زبائنه من الفلسطينيين.» (حسن، لاتا)

في هذه الفترة المبكرة من حياته بدأ كتابة القصة القصيرة. ويعلمنا كفاني أن ميوله الأولية، واهتمامه المبكر كانت ذات طابع أدبي يقول: «إن حياتي السياسية نتجت عن كوني روائياً وليس العكس، لقد حاولت كتابة قصة شعبي الفلسطيني قبل أن تتبلور أمامي الروية السياسية، ولقد رأيت أن هنالك شيئاً ينقض إذا لم أنخرط في الحياة السياسية، وإنني أتضاءل كثيراً لو لم أكن روائياً في نفس الوقت.» (ضمره، ٢٠٠٥م)



«لقد كانت مجلة الرأي الأسبوعية الناطقة بلسان حركة القوميين العرب أول مجال خاضعة كنفاني وقد شجع محررها آنذاك _ هاني الهندي _ ذلك الشاب الوطني على الكتابة مما أطلق موهبته الخصبة، فنشر في أقل من سنة ونصف ثماني عشرة قصة.» (المصدر نفسه) «في بداية سنة ١٩٦٠م، طلب منه الطبيب الفلسطيني جورج حبش الحضور إلى بيروت للمساهمة في تحرير مجلة الحرية وقد نصحه أصدقاؤه أن لا يفعل كونه بحاجة إلى المردود المادي الذي تؤمنه له الوظيفة، فهو مريض بداء السكر، ومرضه يتطلب نفقات علاج باهضة، ومع ذلك لبي نداء الواجب، وودع مهنة التعليم والتحق بأخته؛ لعمل التعليم في الكويت للمساهمة في إعالة الأسرة وبدأ يعمل في الصحافة.» (غسان، ١٣٧٠ش: ٩-٨) ومن على صفحات مجلة الحرية وقف مدافعاً عن القصة القصيرة، والرواية، والمسرحية من جهة وعن معتقداته من جهة ثانية. «وسافر مرة أخرى إلى بيروت في ٢٨/١٠/١٩٦٠ بهوية عمانية باسم (هشام فايز) يرتدى الكوفية، والعقال ليستقر فيها نهائياً.» (كنفاني، ٢٠٠١م: ١١٢)

كانت بيروت المجال الأرحب لعمل غسان، وفرصته للقاء بالتيارات الأدبية، والفكرية، والسياسية. «بدأ عمله في مجلة الحرية ثم أخذ بالإضافة إلى ذلك، يكتب مقالاً أسبوعياً لجريدة المحرر البيروتية والتي كانت ما تزال تصدر أسبوعية صباح كل اثنين.» (البيك، ٢٠٠٧م)

كتب والده في مذكراته: «كنت أتمنى أن يكون غسان وأخوته المتشتتون في أنحاء العالم إلى جانبي نعيش معا في بيت واحد ساهموا جميعا في إرساء أساسه، لكنني رغم ذلك أقرأ لغسان كل يوم، وأعرف المقالات التي يكتبها بأسماء مستعارة. أخاف عليه، وأفخر به، أحس أنه سيصير ذا شأن عظيم، أحس به امتدادا. فقد خلقت فيه المعاناة بشتى صورها، وأشكالها، والتي عاشها يوما بيوم الصورة الحقيقية للفلسطيني.» (كنفاني، ٢٠٠١م: ١١٢)

قالت آنى (زوجة غسان): «في بيروت، عرفوني إلى غسان كنفاني، وكان آنذاك واحداً من محرري المجلة الأسبوعية العربية الحرية، وكانت المجلة ناطقة باسم حركة

القوميين العرب، وكان غسان محرراً للشؤون الفلسطينية فيها. حين سألت غسان أن يأذن لي بزيارة مخيمات اللاجئين تملكه الصمت. وبعد هنيهة صرخ غاصباً: أو تحسبين إن شعبنا الفلسطيني حيوانات في جنينة حيوانات؟» (هوارى، ٢٠٠٧م)

ثم شرع غسان بالتفسير فتحدث عن شعبه وعن وطنه. تحدث كيف أن الأمم المتحدة نقضت ميثاقها في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧م. ليس في ميثاق الأمم المتحدة مادة تسمح للهيئة الدولية بتقسيم أى بلد خلافاً لإرادة شعبه. أن تقسيم فلسطين لهو حدث فريد في تاريخ الأمم المتحدة، بل إنه المثال الأول والأوحد على خرق الميثاق. تحدث غسان كيف أن دولة آسيوية واحدة (هي الفلبين، ودولتين إفريقيتين اثنتين، هما ليبيريا وجنوبي إفريقيا) صوتت لصالح قرار التقسيم، وأن الدولتين الأولى قد مورس عليها ضغط شديد من قبل الولايات المتحدة؛ لحملها على مثل ذلك التصويت و... تابع غسان عن فلسطينة الحبيبة وعن إضطراره إلى مغادرتها عام ١٩٤٨م، بصحبة أهله، وأشقائه، وشقيقاته الخمس.

بعد هذا اللقاء لمتعض على ذلك عشرة أيام، كان غسان يطلب يدها للزواج، وقام بتعريفها على عائلته كما قامت هي بالكتابة إلى أهلها.

تتكلم زوجته آنى عن حياتهما العائلية فتقول: «كانت لدينا مشاكلنا كأي فلسطينيين آخرين: مشاكل اقتصادية وغيرها مثلاً في كانون الثاني من عام ١٩٦٢م، اضطر غسان أن يلازم البيت مدة شهر كامل لأنه لا يملك أوراقاً ثبوتية. خلال هذه الفترة كتب رواية رجال في الشمس وقد أملاها عليّ، لقد ترجم لي كل قصصه ورواياته و...» (ضمرة، ٢٠٠٥م)

وتضيف: «لقد كان دائماً مشغولاً بالكتابة وكأنه على موعد من الموت. لقد تأثرت تأثراً كبيراً بغسان ولو أنه من جانبه لم يكن ليملى عليّ أو على أصدقائه آراءه، ولكنى كنت أحس بمدى تغلغل قضية فلسطين في دمه.» (المصدر نفسه)

أدب غسان وإنتاجه الأدبي كانا متفاعلين دائماً مع حياته، وحياة الناس وفي كل ما كتب كان يصور واقعاً عاشه أو تأثر به.



عائد إلى حيفا عمل وصف فيه رحلة مواطني حيفا في انتقالهم إلى عكا وقد وعى ذلك. وهو ما يزال طفلاً يجلس ويراقب ويستمع، ثم تركزت هذه الأحداث في مخيله فيما بعد من تواتر الرواية. أرض البرتقال الحزين قصة تحكي رحلة عائلته من عكا وسكناهم في العيشة الصعبة.

موت سرير رقم ١٢، استوحاها من مكوثه بالمستشفى بسبب المرض.

رجال في الشمس من حياته وحياة الفلسطينيين بالكويت، وإثر عودته إلى دمشق في سيارة قديمة عبر الصحراء. كانت المعاناة، ووصفها هي تلك الصورة الظاهرية للأحداث أما في هدفها فقد كانت ترمز، وتصور ضياع الفلسطينيين في تلك الحقبة، وتحول قضيتهم إلى قضية لقمة العيش مثبتاً إنهم قد ضلوا الطريق.

في روايته ما تبقى لكم التي تعتبر مكملتها لرجال في الشمس يكتشف البطل طريق القضية في أرض فلسطين وكان ذلك تبشيراً بالعمل الفدائي.

روايته أم سعد كانت كلها مستوحاة من ناس حقيقيين في فترة من الفترات كانت الرواية عن ثورة ٦٧ في فلسطين، فأخذ يجتمع إلى ناس المخيمات ويستمع إلى ذكرياتهم عن تلك الحقبة. «كانت لغسان عين الفنان النفاذه وحسه الشفاف المرهف، فقد كانت في ذهنه في الفترة الأخيرة من حياته، فكرة مكتملة لقصة رائعة استوحاها من مشاهدته لأحد العمال، وهو يكسر الصخر في كاراج البناية التي يسكنها، وكان ينوي تسميتها الرجل والصخر.» (العباسي، ٢٠٠٧م)

عالج غسان البحث، والقصة، والرواية، ولكنه أصدر طائفة من قصصه ورواياته التي عالج فيها مأساة قومه وكارثة بلاده. يقول الدكتور احسان عباس: «من يقرأ قصص غسان كنفاني يدرك دون عناء، أن أشخاصه من أبناء الشعب البسطاء، وكثير منهم أطفال أو شبان يعملون بدافع من صدق الفطرة دون أن يبلغوا سن الحكمة وليس فيهم من يحاول أن يفلسف الدور الذي يؤديه أو الغاية التي يسعى إليها، فمنهم من يضحي بحياته دون أن تمر بخاطره "لم" ومنهم من يتحمل عبء العائلة الكبيرة التي خلفها لها أبوه، والتشرد معاً دون أن يتذمر، ومع ذلك فإنهم في مثل هذه المواقف ليسوا سلبيين

كما أنهم ليسوا أطهاراً كالملائكة.» (السوافيري، لاتا: ٣٨١)
«نال عام ١٩٦٦ جائزة أصدقاء الكتاب في لبنان عن روايته ماتبقى لكم.
نال اسمه جائزة منظمة الصحفيين العالمية سنة ١٩٧٤ وجائزة اللوتس ١٩٧٥.
منح اسمه وسام القدس للثقافة والفنون في عام ١٩٩٠.» (شاهين، ٢٠٠٠م: ٥٤٣)

من أعمال الشهيد الكاتب المناضل

١. «الروايات

رجال في الشمس - بيروت ١٩٦٣م.

ما تبقى لكم - بيروت ١٩٦٦م.

عائد إلى حيفا - بيروت ١٩٦٩م.

أم سعد - بيروت ١٩٦٩م.

الشيء الآخر - بيروت، وقد صدرت فصولاً متتابعة ولم تصدر في كتاب مستقل إلا
بعد استشهاد عن طريق لجنة جمع أعماله.

العاشق... الأعمى والأطرش... برقوق نيسان (روايات غير كاملة نشرت ضمن أعماله

الكاملة)

٢. المجموعات القصصية

موت سرير رقم ١٢ - بيروت ١٩٦١م.

أرض البرتقال الحزين - بيروت ١٩٦٣م.

عن الرجال والبنادق - بيروت ١٩٦٨م.

المدفع - دار الأسوار - عكا ١٩٧٨م.

٣. الدراسات

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة - (١٩٦٦ - ١٩٤٨م). بيروت ١٩٦٦.

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال - بيروت ١٩٦٨م.

في الأدب الصهيوني - بيروت ١٩٦٧م.



دراسة في رواية ما تبقى لكم لغسان كنفاني

المنظمة الاشتراكية الإسرائيلية ماتسبن - دار منيمنة - بيروت.
ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ في فلسطين - خلفيات، وتفاصيل، وتحليل.

٤. المسرح

الباب... القبعة والنبي ..- بيروت ١٩٦٤م.

ظهرت أعماله الكاملة في أربعة مجلدات تشمل: الروايات، القصص القصيرة، المسرح،

الدراسات..» (المصدر نفسه: ٥٤٥-٥٤٤)

موجز رواية ما تبقى لكم

ما تبقى لكم، هي الرواية الثانية لغسان كنفاني، ظهرت بعد ثلاث سنوات من رواية رجال في الشمس، أي في سنة ١٩٦٦م. تحكي الرواية عن أسرة فلسطينية تسكن مدينة غزة. هذه الأسرة أخرجت من مدينتها يافا، بعد الصدام الذي حصل بين العرب، واليهود وتحت ضغط الظروف، والإرهاب الذي تم فيه إخراجهم تشنت الأسرة. أخرج حامد، وهو الطفل الذي له من العمر عشر سنوات مع أخته الشابة مريم، ولها من العمر عشرون عاماً، ومعهما الخالة العجوز من يافا إلى غزة، وبينما تبقى الأم في غزة لأنهم يحملون في قارب، وهي آملة في اللحاق بهم في قارب آخر غير أنها لا تتمكن من ذلك.

يقف حامد حياته على القيام بالأسرة الصغيرة: الأخت والخالة. يعمل في مدرسة اللاجئين معلماً. وتعلم الأسرة عن طريق الإذاعة بأن الأم مازالت على قيد الحياة في الأردن، وتعيش عند شقيقتها وتتبادل معها الرسائل الإذاعية. يكبر حامد، ويرفض أن يتزوج؛ لأنه يريد أن يخرج من جحره القمى إلى وضع أفضل، ويرفض أيضاً أن يزوج مريم إلى أن يتقدم لها الرجل الجدير بها. لكن الظروف لا تتيح له تحقيق رغباته فيفاجأ بأخته، التي وهب لها حياته حاملاً وقد بلغت من العمر السادسة والثلاثين وممن؟ ومن زكريا، زميل حامد في المدرسة، الذي لا يحمل له إلا الاحتقار والازدراء، حتى إنه لا يسميه إلا «النتن» زكريا خائن، ذليل، جبان، تهاوى أمام أول تهديد، حينما توجه به إليهم الضابط الإسرائيلي بأن يدلوا على الفدائي سالم من بينهم، وفي ساحة المعسكر

حيث كان يسود الصمت، يأمر الضابط الجنود برفع بنادقهم، لإطلاق النار على الجميع إن لم يعترفوا أيهم سالم، حتى ينطلق زكريا من بين الصفوف، راعياً أمام الضابط، ويقول: «أنا أدلكم على سالم» لكن سالم لم يتح له فرصة الاعتراف فقد تقدم إلى الضابط الذي أمر بأخذه خلف جدار وبعد دقائق سمعوا صوت الرصاص.

أجل، استشهد سالم ولم يستطع حامد أن ينسى هذه الحادثة ولا أن يغفر زكريا بالإضافة إلى هذه الخيانة؛ إنه متزوج وله خمسة أولاد. لم يحتمل حامد فجيعة بأخته، فقرر أن يترك البيت، ويذهب إلى أمه في الأردن عبر الصحراء، يخرج بلا سلاح ولا دليل، لكنه صمم ولن يتراجع. يبدأ رحلته عبر الصحراء في المساء، وفي قلبها يفاجأ بجندى إسرائيلي ضلّ طريق دوريته، عرف ذلك من مسدس الإنقاذ الذي كان يطلقه، كي يهتدى إليه أصحابه، يتنبه في هذه اللحظة إلى أنه لا يملك سلاحاً، وبخفة وبراعة، يباغت الجندى، فيرميه أرضاً وينزع منه سلاحه ويستولى على سكينه. يمضى حامد كل الليل أمام الجندى بعد أن قيده منتظراً عودة الدورية، وفي هذه الساعات يستعرض ماضيه، وحاضره، وما حقق على صعيد الوطن أو الأسرة.

ها هي الفرص تتاح له ليعوض عن الماضي، ويعتزم قتل الجندى بسكين. وفي الوقت نفسه تقضى مريم على زكريا بسكين المطبخ؛ لأنه يصر على إسقاط الجنين، ويسميها الفاحشة، والشيطان، هي تقتل زكريا "التنن" لتتلافى الفضيحة. (كفاني، ١٩٨٦م: بالتلخيص)

دراسة فنية لرواية ما تبقى لكم

تعتبر هذه الرواية تجديداً كبيراً في الشكل الروائي، أثار إعجاباً وجدلاً كبيرين بين القراء؛ إذ اعتبرت قفزة كبيرة في الشكل.

يقول غسان: «هي قفزة من حيث الشكل، لكنها أثارت بنفس الوقت تساؤلات بالنسبة لي، لمن أكتب أنا؟ هذه الرواية قلة يستطيعون من بين قرائنا العرب أن يفهموها. فهل أكتب من أجل أن يكتب أحد النقاد في مجلة "إني أكتب رواية جيدة" أم أنا أكتب



من أجل أن أصل إلى الناس؟» (خليل، ١٩٨٩م: ١١١)

بعد هذا العمل لم يحاول غسان تكرار هذه التجربة، ولم يطورها في روايته اللتين صدرتا بعدها؛ بل كان في *عائد إلى حيفا*، أميل إلى البساطة والكلاسيكية، وفي *أمسعد* يزيد تبسيطاً، وإنه ابتعد تماماً عن التعقيد والتداخل الذي تميزت به رواية *ما تبقى لكم*. هذه الرواية تعتبر من بواكير التجارب الحداثية في منبر الرواية العربية، لا يستطيع القارئ العادي أن يفهمها، وحتى القارئ المختص يحتاج إلى الروية حتى يستكشف مضامينها. المكان: كان مكان الرواية في غزة. الزمان: يرجع إلى ما قبل نكبة ١٩٤٨م، حياة قسوة بعد الحرب. أبطال الرواية ثلاثة هم: حامد وأخته، مريم، زكريا الخائن.

الحدث المحوري: يظهر في الاحساس الموحش بالعالم المظلم الذي تعيشه مريم العانس، التي بلغت الخامسة والثلاثين، ولقاءها بزكريا الخائن، وحملها سفاحاً منه ولا يجد أخوها، حامد، مفراً ولكنه عزم أن يغادر غزة للحاق بأمه في الأردن و...

«من حيث الأسلوب: نشأت الصعوبة في الرواية، وبشكل خاص من اعتماد الكاتب التداخي، والمونولوج الداخلي، وهما يدخلان في نسيج الحدث الروائي بدون فواصل تنبه تلقائياً إلى تغيير المواقف، أو الشخصيات، كما تعتمد توازي الأحداث في الزمان، والمكان وقد حاول غسان تذليل هذه الصعوبة باللجوء إلى تغيير لون حروف الطباعة بين العادية، والبارزة ورغم ذلك فالصعوبة تبقى قائمة.» (المصدر نفسه، ١١٢)

من المهم الإشارة إلى أن الرواية لا تقوم على الفصول، فهي عبارة عن فصل واحد طويل، من أهم العوامل التي تأتي منها الصعوبة باستثناء بعض الروابط اللفظية، سرعة الانتقال بين الأحداث والشخصيات؛ لأن هذا الانتقال يتم بدون إشعار فني أو أسلوبى، بل وحتى دون إعطاء علامات الوقف من الانتقال إلى فقرة جديدة، بحيث يصبح من الصعب التنبيه إليه، مما ينشئ جواً من الغموض يفرض على القارئ التفكير والتأني؛ ليتمكن من الربط بين جزئيات الحدث الواحد قبل أن تقاطعها جزئيات الأحداث الأخرى.

إلى جانب ذلك هنالك التداخل الزمني بين الماضي والحاضر، إذ يمزجان في الحدث الواحد، لتوضيح ذلك نعرض فقرة من الرواية تظهر لنا هذه السمات: «أنت أرض

خصبة أيتها الشيطانة. أرض خصبة، أقول لك، أرض خصبة مزروعة بالوهم والمجهول، تتكسر كل انصال الفولاذ في العالم إذا مرت فوق صدرك الأصفر العارى، صدرك الأجرد الممتد إلى أبدى، وإلى ابادهم والسابح بجلال في بحر من العتمة، كل نصال الفولاذ في العالم ليس بمقدورها أن تحصد من فوقك عرقاً واحداً. ولكنها تتكسر، واحداً وراء الآخر أمام حصادك الصلب النامى أكثر فأكثر، كلما خطا الرجل إلى أعماقتك خطوة وراء الأخرى، حتى ليتحول هو إلى عرق مجهول يستقى منك انتصابه وخطواته. وليس بالوسع أن يحصد... لا تقل لى ذلك حتى لو فكرت به، فأنا خائفة منه إلى درجة لا أجرؤ فيها على القضاء عليه، عارى. ولكنه يا زكريا عارى الوحيد في خمس وثلاثين سنة طاهرة ومخزونة.» (كفاني، ١٩٨٦م: ٢٧)

يحتوى المقطع رغم قصره على ثلاث نقلات سريعة. فى بداية الفقرة، مناجاة بين زكريا ومريم، تلوح منها نوعية العلاقة بينهما، يتحول الكلام بعدها إلى حامد وهو يضرب بالصحراء مكتشفاً خصوبة الوهم الذى يعترى من يحسب نفسه قادراً على خوض غمارها. فهى أشد وأعتى من أن تقهر. والرابط اللفظى "أرض خصبة" ثم عودة إلى زكريا ومريم، وهى تتمتع بعناد عن قبول فكره الإجهاض التى طرحها زكريا والرابط اللفظى "أن يحصد" ونلاحظ التوازي بين الأزمنة: حامد فى الصحراء، مريم وزكريا فى البيت بعيد مغادرة حامد له.

«حين يتعدد الرواة، فإن الفضاء يغدو بمثابة وجهة نظر للشخصيات التى تتبادل الرؤى. وهذه الرواية نموذج رفيع لتعدد الرواة يقدم الفضاء فيها عناصرها وفق رؤية الرواة.» (حطينى، ١٩٩٩م: ١٣٢)

زكريا يصف الصحراء من موقع الهازى بحامد وبحدائثه سنه فيقول:
«إن الصحراء تبتلع عشرة من أمثاله فى ليلة واحدة (ماتبقى لكم) بينما يدرك حامد صحة كلام زكريا يضيف إلى عبارة زكريا (عشرة من أمثاله) كلمة لتصبح (عشرة رجال من أمثالي)؛ ليقيم علاقة حب اضطرارية بينه وبين الصحراء؛ ليسهم الفضاء من خلال ذلك فى تقديم وعى الشخصية المتناقض تجاهها: ليس بمقدورى أن أكرهك، ولكن هل



سأحبك؟ أنت تتلعين عشرة رجال من أمثالي في ليلة واحدة - إنني أختار حبك، إنني مجبرٌ على اختيار حبك، ليس ثمة من تبقى لي غيرك.» (المصدر نفسه)

لقد نجحت الرواية نقدياً ونالت ثناء المختصين، وأصبحت علامة على مستوى الفن الروائي العربي، يقول عنها د.أبومطر: «فعلى مستوى الشكل استخدام تيار الوعي بمهارة وعفوية، جعلت العديد من النقاد يعدونه خطوة جريئة في مسار الرواية العربية.» (خليل، ١٩٨٩م: ١٣١)

يحاول غسان في هذه الرواية الوصول إلى التعبير المناسب عن أفكاره التحررية، وغايتها فكرة العودة.

الرواية من الناحية الفنية: «أما من الناحية الفنية فإن أسلوبها يتميز عن سائر الروايات. الكاتب نفسه لم يكن راضياً عن نجاح الرواية الفني، على رأيه، أنها ابتعدت عن الجماهير لئن كان النقاد يعتبرون جماهيريته الفن مقياساً لهبوط مستواه الفني.» (المصدر نفسه: ١٣٢)

ولكن نحن نرفض مثل هذه الأحكام، خاصة في المجتمعات العربية الحاضرة؛ لان الفن في الوضع العربي الراهن يجب أن يكون مسؤولية. خاصة في الحالة الفلسطينية تصبح هذه المسؤولية أكثر إلحاحاً؛ لأن الهدف هو الثورة، والثورة لا تقوم إلا بالجماهير؛ لأنهم الغاية والوسيلة، أي أدب يتخلى عن الفعل والجماهير يفقد قيمته الوطنية.

اللغة: يمكن أن نقول إن اللغة في هذه الرواية ابتعدت عن الجماهير ولكن الجدير بالذكر، أنها انعكاس للمضمون الروحي للشعب الفلسطيني، وسيتم إيضاح ذلك في قسم فلسطين والرواية.

الرمز في الرواية

حامد هو الشخصية الرئيسية في الرواية، وبه يتجلى الرمز الكلي وعنده بقية الرموز الجزئية. هو الرمز لكل الشباب الفلسطيني الذي كابد مأساة ١٩٤٨م، وقذف به في سرعة لاتسمح باستيعاب ما حدث. حامد رمز الكيان الفلسطيني المحبط، المفجوع، المتردد

وهو يخوض معركة الخلاص.

فأى رمز هذا الذى تهباً فى شخصية مريم؟ مريم هى كل ما أفرزته الهزيمة من أوضاع الأسره الفلسطينية، ابتعدت من بيتها ومدرستها وطموحاتها وأرضها بلامال ولاسند؛ لتضعها أمام أوضاع الحياة العاتية.

زكريا هو الذى يمثل صورة الفلسطيني الجاحد بأرضه. هو يدل الضابط الصهيونى على الفدائى سالم ويغتصب مريم فى غياب أخيها، حامد، عن البيت إن قتل زكريا على يد مريم والذى يختتم به غسان الرواية، يؤكد «أن المرأة الفلسطينية ليست صورة لفلسطين فحسب؛ بل هى رمز لأرضها عندما تتور على مغتصبيها.» (الصالح، ٢٠٠٤م: ٥٢)

إن رحلة حامد الهادفة إلى النقاء (الانطلاق من الخيانة) هى رمز لدرس كبير يقدمه غسان، كل محاولة لبلوغ الظهر الفلسطينى لابد لها من العبور بفلسطين المحتلة. الصحراء فى ما تبقى لكم، هى وسيلة فنية تغوض الراوى، فهى التى تشهدنا على حامد، وقد اختارها للخلاص فتصفه لنا شكلاً، وإرادة، وموقفاً، وتنقل لنا خطواته فوقها. أجل! الصحراء، وسيلة حياته، الصحراء تنقذه من هذه المعركة. صحراء موجودة فى أكثر الأماكن التى يوجد فيها الفلسطينى؛ لأننا نرى فيها الخلاص، والأمن كما تتجلى أمامنا مثل مهلكة قاتلة، وكلاهما صار جزءاً من فلسطين. أملها الراحة وخوفها من مهلكة قاتلة تكون وحشتها.

فلسطين فى رواية ما تبقى لكم

لم يكن اهتمام القراء والنقاد بهذه الرواية، ما تبقى لكم، بسبب شكلها الفنى فحسب، بل بسبب إثارته لوعى جديد أيضاً، وعى يستمد تحققه، وحضوره، وتعبيره عن الذات الفلسطينية من خلال الارتباط بالأرض؛ لبقاء الفلسطينى واستمراره فى الحياة أولاً، ولانتصاره على الواقع الغاشم الذى دفعه مغتصبو تلك الأرض إليه ثانياً. ويتجلى ذلك الوعى من خلال ثلاث شخصيات إنسانية رئيسة: حامد، ومريم، وزكريا، وبينهم علاقة



ويتنازع حركتهم في الأحداث خطان متوازنان أحياناً أو متعارضان أحياناً أخرى. كانت هذه الرواية انعكاساً للمضمون الروحي لشعب معين في مرحلة معينة. زكريا هو «الوعى الفلسطيني في خبله الذي أدانه غسان في رجال في الشمس، إنه الضمير لا في عدم قابليته للإفافة فحسب، بل وفي عدم إحساسه حتى بسقوطه الفردي.» (سامي اليوسف، ٢٠٠٤م: ٤٥)

كانت مريم هي الحس الدنس الخانع، والذي هو جزء من محتوى الضمير الفلسطيني. فإن انتصارها على تقيضها، مشروط بانتصار حامد على الجندي، أما حامد فهو الممثل لكل الشباب الفلسطيني الذي كابد مأساة ١٩٤٨م. على المستوى الفردي تجاوز حامد، ماضى المخيم، وعاره، وذلك؛ ليصنع حاضراً يمتلئ بالحركة، والفعل الإيجابي باتجاه المستقبل، والخلاص وعلى المستوى الجمعي، يجسد حامد صورة الشعب الفلسطيني الذي فقد الوطن ووقف عاجزاً غير قادر على الفعل، والحركة في مخيمات اللاجئين.

«وفي إطار الواقع المهزوم، كان لابد من الفعل باتجاه الخلاص وعدم الرضوخ والاستكانة. فجاءت حركة حامد وحركة مريم؛ لتعبر عن إيجابيه الزمن الحاضر في تحركه نحو المواجهة، على رغم من عدم إستعداد حامد وتخطيطه المسبق للخطة المواجهة فقد كان رحيله يعبر عن رفض عفوي موجه للواقع.» (القصراوي، ٢٠٠٤م: ص ١٣٠)

صدرت الرواية ١٩٦٦م، وهذا التاريخ له دلالاته الكبيرة في حياة الشتات الفلسطيني، فيه تحقق ظهور التنظيمات الفلسطينية، بتشكيلاتها العسكرية الضاربة، والسياسة المنظمة. هكذا تحققت البداية التي كانت حلم الكاتب، وهو يحاول الوصول إلى التعبير المناسب عن أفكاره التحررية. إن خوفه على القضية من الزمن، زاد من إلحاح هاجسه. كان يخشى أن تصبح فلسطين بالنسبة للأجيال الفلسطينية الآتية، مجرد ذكرى غالية، وحيناً رومانسياً لأرض الأجداد ولهذا كان حرصه على إقامة ثقافة فلسطينية شديداً عبر القصة، والرواية والصحافة و...

استطاع غسان من خلال هذه الرواية شرح الوضع الفلسطيني لفترة الخمسينات، وأوائل الستينات، وهذا يعود لإمكانات كنفاني الفكرية والفنية. استخدم الكاتب عدة

فنيات؛ لخدمة رمزية الرواية في الأسلوب والأدوات، رموز متنوعة: الشخصية الرمزية: حامد/مريم/زكريا/ والفعل الرمزية: تغيير التوجه في الصحراء/قتل العدو وكان موقفاً بالنسبة للأداة الرمزية حقاً. إن مصير حامد والجندي الصهيوني في خاتمة الرواية يقول إن مواجهه الفلسطيني لعدوه هي الطريق الوحيدة التي تكفل له استمرار وجوده في الحياة، أو بداية عودته إلى الأرض التي اقتلعه هذا العدو منها. أما في الوجهة الأخرى من حركة الرواية، مريم وزكريا، فإن الروائي يقدم شكلاً آخر لصلة الفلسطيني بالأرض، وجهاً نقيضاً لحامد ملوثاً بالعار والخيانة. العار الذي تحمله مريم في بطنها، والخيانة التي كانت في رأس زكريا، الذي يمثل صورة الفلسطيني الجاحد بأرضه.

«تبدأ ماتبقى لكم بالدنس، بالسلب، وتنبثق منه، ولكن الطهر يحاوره ولا يدعه يفلت من قبضته حتى ينتصر عليه.» (سامي اليوسف، ٢٠٠٤م: ٤٥)

إنها تبدأ بالدنس وتنتهي بالنظافة، وبذلك تمهد السبيل أمام/مسعد (الرواية الأخرى) وكذلك هي تبدأ بالأزمة وتنتهي بالانفراج.

«أدب الكاتب الروائي هو التنوير الذي يسلطه وبقوة على الحالة الفلسطينية، اجتماعياً وسياسياً، بعد النكبة، في مرحلة الخمسينات، أي قبل ظهور الحركة النضالية المسلحة، وهذا حتى يستجلى الفلسطيني أعماق قضيته.» (خليل، ١٩٨٩م: ١٢٩)

يرى الدكتور أبو مطر: «أن الطرح الوطني التحريضي من خلال تحرك شخصية حامد إلى الفعل الثوري قد جاء عن وعي وتخطيط، مسبقين تلاهما تخطيط آخر بإطار الفعل الثوري الفردي بعداً جماعياً في الروايات التالية لهذا العمل مثل رواية أم سعد مثلاً.» (المصدر نفسه: ١٣٠)

رسالة غسان في هذه الرواية أو في الروايات الأخرى كانت الدعوة إلى الوعي. يقول في ذلك: لم يكن الاتجاه الحقيقي الوحيد للخلاص إلا بالمواجهة، والمواجهة فقط.

النتيجة

تعتبر روايات غسان من الروايات الواقعية التي تمثل فترة ١٩٦٧-١٩٤٨ من تاريخ



فلسطين. إن الكبت، والظلم اللذين سادا المجتمع الفلسطيني في هذه الفترة قد دفعا غسان إلى استخدام الرمز للتعبير عن آرائه. إن غسان لبس ثوب الناقد الاجتماعي في رواياته الاجتماعية، وركز فيها على الإنسان وما يعاني منه؛ إنه لم ينس مجتمعه، وكان نداؤه الدفاع عن حقوق المرأة، والحرية، والنجاة من قيود الظلم.

رواية ما تبقى لكم صدرت ١٩٦٦م، وهذا التاريخ له دلالاته الكبيرة في حياة الشتات الفلسطيني، فيه تحقق ظهور التنظيمات الفلسطينية بتشكيلاتها العسكرية الضاربة، والسياسة المنظمة، كانت الدعوة إلى الوعي، إن غسان كنفاني يدعو إلى مجتمع ينفى استغلال الإنسان للإنسان، ويوفر تكافؤ الفرص، واستثمار المواهب الإنسانية. قد خرج غسان كنفاني بهذه الرواية عن دائرة الواقع الاجتماعي المحلي إلى القضايا الإنسانية العامة التي تتعلق بالوجود وبالإنسان. فيما يتعلق برواية غسان كنفاني، قد استطاع الكاتب أن يصور قضايا مجتمعه من خلال رسم أحداثه. بعد قراءة هذه الرواية الاجتماعية تتضح أن غسان كنفاني، كان يشاهد مشكلات المجتمع الفلسطيني، وقد تأثر بمشاهداته الدقيقة، وكأنه ناطق باسم الطبقة الشعبية، والطبقة المتوسطة التي كانت تعاني من مظاهر الظلم، والفساد، والفقير، والحرمان. والكاتب قد تحدث عن الواقع على لسان الشخصيات الفلسطينية.

المصادر والمراجع

- الصالح، نضال. ٢٠٠٤م. *نشيد الزيتون، قضية الأرض في الرواية الفلسطينية*. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- القصرأوى، مها حسن. ٢٠٠٤م. *الزمن في الرواية العربية*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- السوافيري، كامل. لانا. *الأدب العربي في فلسطين من سنة ١٨٦٠-١٩٦٠م*. القاهرة: مكتبة الدراسات الأدبية، دارالمعارف.
- حطيني، يوسف. ١٩٩٩م. *مكونات السرد في الرواية الفلسطينية*. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- خليل، خالدة شيخ. ١٩٨٩م. *الرمز في أدب غسان كنفاني القصص*. قبرص: لانا.
- سامي اليوسف، يوسف. ٢٠٠٤م. *رعشة المساة*. دمشق: داركنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية.
- شاهين، أحمد عمر. ٢٠٠٠م. *موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين*. الجزء الثاني. غزة: منشورات

المركز القومي للدراسات والتوثيق.

كنفاني، عدنان. ٢٠٠١م. *غسان كنفاني صفحات كانت مطوية*. بيروت: مؤسسة غسان كنفاني الثقافية.
كنفاني، غسان. ١٣٧٠ش. *بازگشت به حيفا و دستان کوتاه*. ترجمه: يوسف عزيزي بني طرف. تهران: نشر
چكاه.

كنفاني، غسان. ١٩٨٧م. *العاشق*. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
كنفاني، غسان. ١٩٨٦م. *ما تبقى لكم*. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

المواقع الإلكترونية

البيك، سليم ٢٠٠٧م. *حين اغتالوا غسان*.

موقع الحوار المتمدن: www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=50543

العباسي، محمد عبده. ٢٠٠٧م. *غسان كنفاني... شهيد يليق بوطن سليب*.

شبكة سندس الأدبية ٩٩٠٩: www.sndos.com/vb/showthread.php?t=9909

حسن، حميد. لاتا. *من موقدة البيت إلى موقدة الثورة*.

موقع www.horria.org/kanafani-haddaf.htm

شلحت، أنطون. لاتا. *ماذا يتبقى عن غسان*.

موقع www.algazera.com

ضمرة، يوسف. ٢٠٠٥م. *حارس الحلم الفلسطيني*.

موقع www.inrooh.net/fm/aie/aeeye

كنفاني، عدنان. ٢٠٠٧م. *ملف خاص بمناسبة الذكرى لاستشهاد الأديب غسان كنفاني*.

موقع www.thagafa.org/main/defaill.aspx

هوارى، داليا. ٢٠٠٧م. *وردة فوق قبر*.

موقع www.alsakher.com/vb2/showthread

